الكتاب السابع

من جيل إلى جيل

نستطيع أنه ننتصر اذا أردنا أنه ننتصر

مريشال فوش

obeikandl.com

الكتاب السابع

من جيل إلى جيل

وبعد ، فمصر اليوم فى مفترق الطرق .

وما « أحمد عصمت » ولداته فى نهضة منتصف القرن إلا طلائع مصر الحديثة . فلنتـــابع الطلائع ، بالسير فى هدى النجوم . ولنخشع أمام الذكرى ، لنتعلم من الماضى حساب المستقبل . ولن يعرف أحد حساباً إلا إذا ساءل نفسه :

ماذا قدمت لبلادى ؟

وماذا على أن أقدم لبلادى ؟

أما السؤال الأول ، فجوابه عندنا ، نحن الذين كنا فى « نهضة فاتحة القرن » حيث أنتم ، أيها الشباب ، فى نهضة « منتصف القرن » تتساءلون .

السؤال الثانى

إننا ـ مع الأسف ـ قدمنا قليلا فى حين كان المطلوب منا كثيراً ... لكننا كنا طلائع النظام الجديد الذى أرست قواعده الحياة النيابية وجاوزت أبصارنا الهدف ، من مناورات المستعمر . فلم تفطن كثرتنا إلى أن البرلمان وسيلة لا غاية ، وتلاحق الصرعى ، والجرحى ، فى صفوفنا ، فلم

تنصرم سنوات حتى رضى بعضنا أن يكونوا مع الخوالف . وقعد البعض لنا كل مرصد. وقلبوا لنا الأمور، وباعونا بالمال. وخدعونا بالسلطان. واسترهبونا بالفقر والجهل والمرض .

« وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

كان من وراء ذلك العراك الخفي حيناً ، البارقة رماحه أحيانا ، عينان للعدو الخارجي والعدو الداخلي ، ترعيان عوامل الدمار المسلطة علينا وتغذيانها دائما بالوقود . فنخرت عظام النظام ، من عمل أعوان العدو ؛ وصارت القصور قصور الورق ، تبتدىء خطوطها وتنتهي خيوطها حيث جيش الاحتلال

وبهذا تسنم فتيان من طليعتنا كراسي السلطان ، وعرف بعضهم لذاذات الثراء ، فأبعدوا منا ما استطاعوا مسحورين .

كنا أشتاتا نحارب قوما جميعا ، وكنا أفراداً في أخلاط من العشيرة ملصقين بنا، وليسوا من أنفسنا، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وكلما تراءى قبس من النور في ظلمات اليأس ، انبرى له الشيطان بألف معول وألف لسان . حتى كان من أمرنا ما كان .

لكننا استطعنا في السنوات الثلاث الأخيرة أن نضيف لحساب جيلنا الثورة الدستورية في سنة ١٩٥٠ وخطوات الشهداء على أرض القنال ، في سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، وثورة الجيش في سنة ١٩٥٢ ، وخلع الملك ، وإلغاء الملكية ، وإعلان الجمهورية ، وتحديد الملكية ... وأننا قطعنا رأس الإقطاع وذنبه مثلما جعلنا — من قبل — التعليم ، كالماء والهواء ، حقاً لكل فرد حي ، ونهضنا بالتعليم الجامعي ، ومصرنا الجهاز الحكومي ، وصنعت وحداتنا المحاربة المعجزات في حـــرب فلسطين . وطبقنا الديمقراطية كما قدرنا ، وحللنا عقدة الحجاب والسفور ، وخطونا في لاشتراكية خطوات

ولئن كانت الحياة النيابية بحاجة إلى كثير إصلاح ، أو كان التعليم الجامعى يؤرق الجفون، أو كانت الأداة الحكومية قد اتهمت بالإفلاس. منذ قصرت عن توجيه الشعب ، وتنمية إنتاجه ، وإشعاره بقدرته وكرامته ، ففصلت الحكومة عن الأمة ، إنها لأعراض كالأمراض ، تصيب الكائن الحى ككل مرض فى الحياة .

إننا لم نكن نستحق غير هذا ، ولكل أمة الحكومة التى تستحقها . وكيفما تكونوا يول عليكم .

ستحملون أيها الشبان تبعاتنا فيما تحملون من تبعات ، فلا تعذلونا على ما أضعنا من ثمرات ، ولا تكلفونا ما لا طاقة لنا به ، ولا تحملوا علينا إصراً يجب أن يشركنا فيه من قبلنا ، واعفوا عنا واغفروا لنا .

* * *

أما السؤال الثانى :

ماذا تريد منى بلادى ؟ فعندكم جوابه ـ أيها الشباب ـ فاليوم أمسكم وغداً يومكم

ستعرفون الجواب أكثرما نعرف وستجيبونه اليوم وغداً وباستمرار، فليس المطلوب آراءاً وإنما المطلوب عمل... والعمل عمل الأحياء .

سيباركـكم الراحلون منا ويقتفى الباقون آثاركم ، فرحين بنصر الله ، جذلين بخلود مصر فيكم ، وفيمن يليكم .

إن كان لنا أن نقول لكم كلمة ختام فى هذا المقام، فهى كلمة واحدة : « ثقوا بوطنكم ، واعملوا له » .

مصر لم تخذل آباءكم مرة واحدة فى آلاف السنين ، وستنصركم كما نصرتهم

لا قمبيز ولا الإسكندر ، ولا قيصر ولا عمرو ، ولا هولاكو

ولا تيمورلنك ، ولا نابليون . قدروا أن يقهروا مصر ... فردت على حدودها من ردته ، وغلبت فى داخلهـــا من غلبته . فإما لفظته وإما مصرته ، فصارمنا ... وذات يوم أسلم خليفة نابليون على رأس جيشه فى القاهرة .

تتألق الأمم وتخبو . وشعلة مصر لا تخبو أبداً . فإذا خف بريقها زمانا خف ، لا ليتخلف ، ولـكن ليمتزج بالشعلة العالمية فيزيدها توهجاً . فكانت أقدم الأمم وأدوم الأمم ، وكان لها فضلها على اليونان والرومان ، والعرب والأتراك ، وأوربا المعاصرة . وأذاعت رسالات العالم الحديث والعالم القديم شرقاً وغرباً .

ولقد تبطىء خطاها قرنا أو بعض قرون ، لأن عمرها طويل ، وعبئها كبير . لا تبدأ تتلألأ ثم تزول ، كـكل الدول ، بل تمشى على مهل ، لتبقى إلى الأبد . همزة وصل بين طرفى الزمان ، وبرزخا بين جناحى كرة الأرض ؛ تصنع المدنيات صنعا أو تستقبلها وتصدرها .

حتى إذا رانت ظلمات القرون الوسطى فى وجه الأرض كانت لها شرائعها الرائعة ، وأكبر جامعة ، وفنون الزراعة والتجارة والصناعة ، والجحافل الجرارة ، والمجتمع المتحضر ، تنحدر خلاصاتها من سحيق القرون إلى أفهام فلاحها العبقرى ، بالمواريث الأربعة التى لم يجتمع لغيره نظائرها : من أرض مصر التى تزخر بالخير ، إلى فنون الزراعة البارعة التى لم يبلها القدم ، إلى فطانة الأصل العريق تتلاقى عنده حضارة المجتمع وتجاريب الزمن ، والتواصل مع الأمم ، إلى شريعته السمحة المطبقة يوما بعد يوم ، فى شتى شئون الحياة ، وفى كل صلاة ، فى العمل وفى العلم وفى المعاملات والعبادات ، فكانت أستاذه اليومى . فغدا نابها وإن كان لا يقرأ ، ذا قوة وإن لم يتوشح بسلاحه . وبوأ أمته مكانها الأعلى من

أربعين قرنا ، ولم يسقط من يدها مصباح التقدم فى أى قرن ، وما زالت الأمم تخطب ودها وتفيد من وجودها

وسيجرى روح مصر الأصيل على صفحات الوجود ، ما جرى محورها المستقيم فى نهرها الطويل ، بحملا وجنات وادينا . فإذا بلغ بحمع البحرين ، انطلق ماؤه السلسبيل كالسهم ، لم يتغير لونه ولا طعمه ولا طميه أميـــالا ... فإذا أبعد من الشاطىء المصرى ، أكثر وأكثر ، غلب الملح الأجاج على العذب الفرات ، وذهب لونه وطعمه وطميه أباديد ! كمثل ما تغلبنا عوادى الزمان كلمـــا باعدنا بيننا وبين مصر ، فانقطعت صلتنا ، أى ضعفت ثقتنا ، بوطننا.

ثقوا ـ أيها الشجعان ـ ببلادكم ونهركم ، واستمسكوا بهذه السلسلة الطويلة من الموج المتواصل الحلقات ، بين حقول الحضارة وخط استواء العالم وبين أعماق التاريخ السحيق وحاضر أيامه ، كالمسبحة الطويلة فى يد أمنا الكبرى ، ترتل على أمواجها واحدة إثر أخرى ، آيات الشكر لله الذى خصها بثقته ، فأضاء مشعل الحضارة فى ضفتى النهر ، من راحتى مصر ، فحق علينا أن نثق بها كما وثقت قدرة الله .

* * *

اعملوا ـ أيها الشجعان ـ شكراً لله ، واتجهوا بأسباب أمتكم نحو القوة ، فى البر والبحر والسماء ... فى العقيدة ، وفى الأخلاق وفى التعليم ، وفى بناء العقول والأجسام ، وفى تكوين الحجارة المتينة التى نقيم عليها صرح أسرتنا الكبرى ، وهى الوطن ، وأسرتنا الأخرى ، من أنفسنا وأبنائنا ، وسائر الأشخاص والأشياء ، والأعمال والآراء .

إن كان لنا أن نقول لكم قولا عما تتطلع إليه مصر من محاربة المرض والجهل والفقر بالإصلاح الصحى ، والتعليم العام ، ورفع

المستوى الخفيض لتسعين فى المائة من بنى الوطن، وحل مشاكل الأسرة، والتطور الاقتصادى والاستقلال المالى والصناعى والزراعى ، وإضافة أصـــوات الآلات وجلجلتها على جانبى النهر إلى خرير مائه المتدفق ، وبناء الأسطول البحرى والأسطول الجوى ، وإقامة أسوار من الأرواح المصرية على تخوم البلاد ومشارفها، وحل مسائل القناة، والجلاء ، والسودان ، ومنابع النيل ، والجار الجديد فى فلسطين

إن كان لنا أن نشير إلى ذلك كله فاعلموا أن الاستعمار، أى الاحتلال، هو عدونا الداخلى وعدونا الخارجى . اعلموا أنه لن تحميكم المعاهدات التى لا تكونون طرفا فيها ، ولا التى تكونون فيها طرفا . إن بلادنا لا يحميها إلا سواعد بنيها وكفايات كل امرىء يستحق الحياة فيها .

إن علينا ضريبة الدم ، وضريبة الهواء المصرى النقى الذى يملأ الصدور حياة ، قبل أن تستحق علينا ضرائب المال ... بل قبل أن تستحق لنا حقوق ، فلا حق على الوطن إلا بواجب

هلا أدركتم ذلك بغرائزكم أيها الشجعان ؟ إنكم إن صغت قلوبكم اليه أعددتم له ما استطعتم من قوة ، وعقدتم الخناصر على الانتصـــار ، ولا نصر لأمة إلا بإرادة الانتصار أو كما قال « فوش » « لبوانكاريه » و « كليمنصو » وهم فى انتظار « لويد جورج » ليرسموا الخطط الأخيرة التى أظفرتهم فى الحرب العالمية الأولى : [سيتحدثون إلينا عن خطط المعـــارك - إنى درست الخطط فى المدرسة الحربية ، والشىء الوحيد الذى يحقق النصر هو إرادة الانتصار ، ونستطيع أن ننتصر إذا أردنا أن ننتصر] .

اعلموا أن الأمر أولا وأخيراً عمل من أعمال النفس . فهل أحسستم بالقوى الكامنة فى كل نفس وكل حس !

هل أحسستم الصوت الداخلى يناديكم : إن هذا النهر العظيم وهذا الثرى الخصيب ، وهذه السهول المونقة المشرقة على جنبات الوادى ، وهـــذه الوجوه السمراء التى لوحتها الشمس . وهذه العظام المغيبة لآبائنا فى الثرى ، والآلام والآمال ، والمعانى الخافية أو البادية فى كل ما يحيط بنا ، قد تمثلت فى كلمة واحدة هى مصر ، تريد أن تنهض من جديد ليومكم الموعود ! فى مكانها الجدير بكم فى الأمم

إن رخاءنا المادى والفكرى يتراءى كالثمار الدانية فى انتظار قطافها ؛ وفى انتظاركم دنيا أجمل من دنيانا . والشمس التى جعل لها أجدادكم ذلك المكان فى عقيدتهم فعبدوا ضياء الله فيها ، تهيب بكم أن تحتلوا مكانكم تحتها ، لأنكم بنوها .

إن كنتم أحسستم ذلك ـ أيها الشجعان ـ كما أحسسناه فى ثورة سنة ١٩١٩ ، فاحتفوا بإحساساتكم أيما احتفاء ، لأنها أداة الحياة . ولا تتواعن تعهدها ساعة من الزمان .

لا تفرطوا فى واحدة من الصغائر ؛ فإن الوطنية عقد ينفرط إذا سقطت حبة واحدة من حياته . ويبقى ناقصاً وإن تجمعت بوافيه .

والوطنية لا توجد إلا كاملة وذات هدف ، وما عداها عيش رتيب هو الحياة من يوم ليوم ، لا طعم لها تكاد تسيغه ، ولا غاية لها تتغياها ، وإذا ظهرت بعض آثارها فى دنيا الفرد انعدمت فى حياة الأمة ، وما أقصر عمر الفرد إلى جوار عمر الأمة . فى حين تخلد ذاته أو تطول حياته إذا كان له أثر فى حياة بلاده .

لنعمل على أن نكون أبناء أمتنا ـ أيها الشجعان ـ بالإنتاج لزيادة قيمة الفرد وقوة الوطن ، وبالعلم وبالخلق وإنكار الذات . ولا شىء إلا بالإنتاج والعلم والخلق وإنكار الذات .

لنعمل جميعاً وشتى فى وقت واحد . فإن البحر يتجمع من السواقى والروافد . والوقوف فى انتظار التجمع كف عن التجمع وامتناع عن الجريان . ليعمل كل منكم ما يستطيع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ليس المطلوب منكم مما يقوم به جيل واحد ولكنه قد يتم فى بضع سنين إذا حالف التوفيق أعلامكم

لا تهولنكم ضخامة الجهود فهى مطلوبة من سكان الوادى كافة . ومن هذا الجيل خاصة . فإن سقط دونها فهى فى رقاب الأجيال اللاحقة . فليعمل كل منكم فى دائرته إن لم يستطع أن يعدوها ، فليس ذلك أضعف العمل ولا أضعف الإيمان .

اعملوا بصوت خفيض وبصوت عال

والعمل هو نفس الإصلاح ، والتقدم يجىء من فوره فى آثاره

لم يستغل، بعد ، كل شىء فى شطرى الوادى ، لا الماء ولا الصحراء ولا التربة آتت كل ثمارها ، ولا نصف ثمارها ، ما دامت محرومة من الآلات . ولا التاريخ المصرى أو الطبيعة المصرية أو ملكات الرجال... كل أولئك الكنوز الزاخرة ختمت على مفاتحها الأثرة ، والشك ، والتنابذ، وضعف « روح الفريق » أو العمل مع الجماعة ، وعدم الاعتماد على الذات والتعويل على الأجنبى .

* * *

أيها الشبان . . . أيها الشجعان

لقد علمنا التاريخ سر نجاح الأمم منذ فجر الحضارة :

جاء رجل أجنبى يقرع أبواب «صولون» وهو يقول: إنى أريد صداقتك فأجابه : « أولى بك ان يكون لك أصدقاء فى وطنك لا فى الخارج »

وذات يوم رجع المرشح الإسبارطى جذلان فرحاً إذا أخفق فى انتخابات الثلثمائة ، لأن فى « إسبارطة » ثلثمائة خيراً منه .

ولما سأل الفرس الوفد الإسبارطى هل يمثلون رئيسهم أو جمهوريتهم، قالوا : « نحن نمثل رئيسنا إذ أخفقنا ، ونمثل جمهوريتنا إذا وفقنا »

ولما أتم « ليكرج » رسالته فى سن الشرائع « لإسبارطة » رأى أن يميت نفسه جوعاً « لأن موت السياسى أجدى على وطنه من حياة كحياة العاطلين » .

وقيل لأم الشهيد « أحمد عصمت » بعد المعركة إن فتاها كان أشجع الشجعان فقالت : « لقد كان ولدى شجاعاً . لكن فى مصر من هو أشجع منه »

أيها الشبان . . . أيها الشجعان

ياشباب الأيام التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد : إننا نسلمكم مصر خيراً مما تسلمناها . فسلموها أبناءكم خيراً مما تسلمتموها . وأضيفوا إلى صفحات هذا السفر المنشور على وجه البسيطة صفحة مشرقة

أيها الشبان . . . أيها الشجعان

إلى مزيد من القوة ، مزيد من الوطنية ، مزيد من التضحية ، مزيد من الديمقراطية ، مزيد من الإنتاج

اعملوا . اعملوا دائما . فسيرى الله عملكم . وسيراه بنوكم . وسنراه فى العالم الآخر

المطبعة التجارية الحديثة
٣ شارع الشيخ قمر بالسكاكيني - مصر